التقليدي.. ولكن لنا أن نتساءل ونسأل الكاتب الصهيوني الذي يريد أن يؤصل ويضيف للصهيونية هذا البعد الاكبر في أي ظرف نشأت ، ؟ ومن أي مرحلة من مراحل عصر القومية الاوروبي وعن اي قوى عبرت في تلك المرحلة ؟ ومن أي فكر اوروبي رضعت واستقت ؟ ! فلا يمكن أن نأخذ التاريخ الاوروبي وعصر القومية بالذات في مجمله وعلى علاته دون أن نتساءل عن حقيقة القوى والاتجاهات والبيئات الاجتماعية التي نشأت فيها وتأثرت بها الصهيونية ؟ ! ذلك ما يمنحنا وضوحا اكبر وعندما يؤكد هرتزبرج ان الصهيونية ابنة عصرها ، فهو على حق ، ولكن لنا أن نتساءل ابنة من على وجه التحديد في ذلك العصر؟ ! ووريثة من ؟ فقد كان العصر عامرا بالصراع بين قوى الثورة وقوى الرجعية السوداء بين الراديكاليين والامبرياليين الكولونياليين !

لقد كان العصر الذي ينتمي اليه هس اكثر تعقيدا بكثير من العالم العقلي البسيط للاندماجيين والمصلحين الدينيين اليهود والمسيحيين . فقد ثبت بعد الهزائم التي لحقت بالثورات ، والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تلت ، ان الكوسموبوليتية والتقدم والفردية ليست هي اطفال الثورة الفرنسية الوحيدين ، بل ان هناك ايضا القهر القومي والعدوان والحرب . ثم دخلت الرومانسية الرجعية الحلبة ومعها القومية الشوفينية والعرقية بعد منتصف القرن ، واشتدت الاصوات التي تتحدث عن السمات العضوية للروح القومية ، كما تنمو من خلال العملية البطيئة لتاريخ الشعوب (فولك) وكان ظهورها المبرز كما رأينا في المانيا . كانت هذه النزعة القومية الرومانسية في جانبها المحافظ والغالب ثورة مضادة واعية ضد التنوير ، تقدم قيما جديدة وشعارات جديدة محورها الدم والارض ، وقد عممها هيجل بفلسفته الغامضة ، واصبحت الاصول العرقية والشعبية (فولك) لها تاريخ ومصائر ورسالات .

وفي سنة ١٨٥٢ نشرت العنصرية الحديثة عمدة كتبها الكلاسية وهو كتاب جوبينو « مقال في عدم المساواة بين الاجناس البشرية » وتبعها في العقدين التاليين من القرن موجة العنصرية والعداء للسامية ، عبر عنها فاجنر وجورج فون شونرر George Von Shoenerer مؤسس الجامعة الجرمانية في السياسة . وكان هس أول من أخذ هذا المذهب الجديد مأخذ الجد[٦] . لقد كانت النزعة القومية المحافظة في مظاهرها العرقية والعنصرية سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٦٠ هي الرد في نظر هس على الاندماجية ، وقد اخذ هس عن هيردر نزعة التوفيق بين الدين والقومية ، بمعنى أن الدين لا يقوم على اساس عام بل قومي ، مثله مثل اللغة والشعر والعادات والتقاليد .

كذلك تأثرت آراء هس ودعوته الى عودة اليهود الى أرض اجدادهم بكتيب ظهر سنة ١٨٦٠ في هذا المناخ الامبريالي الكولونيالي كتبه السكرتير الخاص لنابليون الثالث ارنست لاهاران Ernest Laharanne . وقد عاصر هذا الكتيب الحملة العسكرية الفرنسية على سوريا وهو يقدم برنامجا يتلخص في « المسألة الشرقية الجديدة ــ الامبراطورية المصرية العربية واعادة القومية اليهودية » انطلاقا من تفكك الامبراطورية العثمانية . وقد اغرت الدعوة هيس واندفع وراء أمل التحالف بين اليهود والامبريالية الفرنسية في الشرق الادنى لتحقيق حلم العودة .

ويبدو سحر الملحمة الكولونيالية ونفاذها الى اعماقه من خلال كتابه « روما والقدس » وكذلك في مشروع عرضه سنة ١٨٦٧ « لاستعمار الارض المقدسة » وتكوين مستعمرات